الفصل السابع

الأيديولوجيا

عند تناول علم الاجتماع السياسى لأيديولوجيا يؤكد أن هناك علاقة قوية بين مفاهيم كل من الأيديولوجيا والمشاركة السياسية والقوة، لأن الفهم الحقيقى للنظام الاجتماعى والسياسى على المستوى القومى والعالمى، لايتحقق إلا من خلال البحث فى ديناميات الأيديولوجيا وسماتها العلمية والنظامية.

ظهر هذا المصطلح أول مرة، حين كتب «كونت دى تراس» عن دراسة الأفكار فى نهاية القرن الثامن عشر، ثم مالبث أن كُتب له الذيوع والانتشار بين الدارسين الفرنسيين إبان القرن التاسع عشر، ولكنه سرعان ما اكتسب معانى سلبية، فارتبط بأفكار ميتافيزيقية عقيمة ظلت عالقة به إلى فترة متأخرة.

من التعريفات التى عرّفت بها الأيديولوجيا أولاً: بأنها نسق من المعتقدات والمفاهيم، يسعى إلى تفسير ظواهر اجتماعية معقدة من خلال منظور يوجه الاختيارات السياسية والاجتماعية للمواطنين أفراداً وجماعات.

كذلك عرّفت بأنها نسق الأفكار المتداخلة التى تؤمن بها جماعة معينة أو مجتمع ما، عاكسة مصالحها واهتماماتها الاجتماعية والأخلاقية والدينية، إضافة إلى السياسية والاقتصادية والنظامية. وتقوم الأيديولوجيا بمهمة التبريرات المنطقية لنماذج السلوك والاتجاهات والأهداف وأوضاع الحياة العامة السائدة، فأيديولوجية أى شعب تنطوى على تفسير، وإعادة صياغة إطار المرجعية الأيديولوجية البديلة. على أننا نجد من يرى أن عناصر الأيديولوجيا حقائق ومذاهب ثابتة، وليست جوانب فلسفية أو نظرية يمكن أن تتوافق مع كل تغير فى الظروف الاجتماعية والثقافية.

وهى كذلك (أى الأيديولوجيا) عملية إنتاج المعانى والعلامات والقيم فى الحياة الاجتماعية، إلى جانب أنها أفكار تساعد على إضفاء الشرعية على القوة السياسية

المهيمنة، وهى الوسيط الأساسى الذى يجعل من خلاله الأفراد علاقاتهم حية داخل البناء الاجتماعى.

تعرض «كارل مانهايم» لمعالجة مفهوم الأيديولوجيا فى مؤلفه الأيديولوجيا واليوتوبيا وهى من المعالجات الهامة لهذا المصطلح. فقد نظر «مانهايم» إلى أنماط التفكير ونماذجه والقيم السياسية على أنها نتاج النظم الاجتماعية والاقتصادية، ولكنه فى نفس الوقت تناول بالتحليل المنظمات التى تنتشر من خلالها الأفكار، فالأفكار عند «مانهايم» لاتنبثق من البناءات الاقتصادية والطبقية فقط، ولكنها أيضاً ترجع إلى خبرات الحياة ونماذج السلوك السائدة بين الجماعات الاجتماعية ذات الأنماط المتعددة. فنجده قد قام بكشف المعانى والدلالات المختلفة التى اكتسبها مصطلح الأيديولوجيا من خلال التحليل التاريخى والاجتماعى، حيث نجده يقول: «إن أى معالجة للأيديولوجيا يجب أن تفرق بين معنيين متميزين ومنفصلين للمصطلح هما المعنى الخاص والمعنى الكلى العام»، ويؤكد كذلك على أن كل الأنساق الفكرية التى تهدف بصورة رئيسية إلى الدفاع عن الوضع القائم، وإيجاد المبررات اللازمة لحماية مصالح الفئات الحاكمة تسمى أيديولوجيا، وهى أنظمة دفاعية[1].

أما المعنى الخاص فهذا يتراوح ما بين الخداع النفسى والكذب الوجدانى، ولكنه ذو طبيعة نفسية، أى أن الفرد الذى يؤمن بالمعنى الخاص للأيديولوجيا يمكن أن يكون قادرًا على التفكير بعدة أساليب أخرى، إذا كان راغباً فى رفض تحيزاته وتعصباته.

على ما يبدو لى أن المفهوم الخاص للأيديولوجيا يشير إلى الشكوك التى توجد لدينا دائماً إزاء الآراء والأفكار والتصورات التى يتقدم بها المعارضون لنا، وتؤدى بالضرورة إلى عدم القدرة على إدراك التعامل مع الواقع الاجتماعى إدراكًا متكاملاً. ويظهر الطابع المميز للمفهوم الخاص عندما يتناقض مع المفهوم الكلى للأيديولوجيا، وخاصة حينما يهتم بتركيب البناء الكلى للعقل بخصائصه فى مرحلة تاريخية معينة. إلا أنه عندما يشير المفهوم الخاص إلى جزء فقط من الأقوال التى يطلقها المعارض، فإن المفهوم الكلى يتناول المعرفة كلها ويعرّف المفاهيم ويحددها وفق منظور الحياة الاجتماعية.

1- نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع، ترجمة محمد عودة وآخرين، مرجع سابق ذكره، ص 130.

كذلك نجد عندما يقيم المفهوم الخاص تحليله للأفكار والآراء على مستوى نفسى يعزو المفهوم الكلى للآراء إلى مرحلة تاريخية، ويعمل المفهوم الخاص فى إطار نفسية المصالح. فى الوقت الذى يتجه فيه المفهوم العام إلى التحليل الوظيفى والوصف الموضوعى لتلك الفروق البنائية بين العقليات التى تعمل داخل مركبات اجتماعية مختلفة.

من هنا نجد أن من يتبنى المفهوم الخاص يرى أن المصالح هى السبب الكامن وراء تلك الأكذوبة أو الخداع، فى حين نجد أن المفهوم العام يفترض مسبقاً وجود نوع من التطابق بين وضع اجتماعى معين ووجهة نظر بالذات، فالمفهوم الأول بدايته الفرد حتى لو بدأنا بالفئة الاجتماعية، لأن كافة الظواهر النفسية يجب أن تعود إلى عقول الأفراد. كذلك فإن المفهوم الثانى يبدأ بإعادة بناء وجهة النظر الكلية للفئة الاجتماعية، أى أنها إعادة بناء الخلفية النظرية التى تأخذ مكانها وراء الأحكام الشخصية للأفراد، فتبرز من خلال ذلك المظاهر النفسية الجماعية للأيديولوجية.

وقد استخدم علماء الاجتماع السياسى الأيديولوجيا السياسية من خلال مجموعة من المفاهيم، فقد استخدمها «روبرت لين» ليعنى بها أولاً أنها تعالج مجموعة من التساؤلات، مثل: من هم الذين سيصبحون حكاماً؟ وكيف يتم اختيارهم؟ وماهى المبادئ التى سوف يستندون إليها فى ممارسة الحكم؟ فالأيديولوجيا باعتبارها مجموعة من المفاهيم تمثل نوعاً من الجدل أو الحوار بين وجهات نظر متعارضة، إلى جانب أنها تؤثر فى قيم الحياة الرئيسية، وكذلك تتضمن برنامجاً للدفاع عن النظم الاجتماعية الأساسية أو إصلاحها أو هدمها. كما أنها ذات طابع معيارى وأخلاقى على مستوى الشكل والمحتوى. فهى بالضرورة إذًا جزء من سياق أشمل يتضمن نسقاً من الاعتقاد، ومن ثمّ فالأيديولوجية السياسية تنطوى على الخصائص البنائية المميزة لهذا النسق.

وفى ضوء هذا يمكننا القول: إن الأيديولوجيا السياسية هى مجموعة من القيم الأساسية، ونماذج من المعرفة والإدراك التى ترتبط ببعضها بعضًا، وتنشأ بينها وبين

القوى الاجتماعية والاقتصادية صلات قوية. كما أن الأيديولوجيا السياسية تنصب أساساً على توزيع القوة السياسية وتعالج مسائل، مثل: شرعية السلطة وأسس القيادة وأشكال الحكم.

أما «ديفيد جيرى» و«جوليا جيرى» فى مؤلفهما قاموس علم الاجتماع فنجدهما يستعرضان عددًا من التعريفات الخاصة بمفهوم الأيديولوجيا فيشيران إلى أنها أى نسق من الأفكار يحدد الفعل السلوكى المجتمعى والسياسى، أى أنها نسق من الأفكار تبرر خضوع جماعة ما لجماعة أخرى، مع إضفاء شرعية على هذا الخضوع. فهى معرفة موسوعية شاملة، قادرة على تحطيم التميز وذات قدرة على الاستخدام فى الاصطلاح الاجتماعى.

كما أننا نجدهما يؤكدان على أن أعمال كل من «ماركس» و«إنجلز» قد أثرت فى تطور النظرية الأيديولوجية. فقد أكد كل من «كارل ماركس» و«إنجلز» على الآتى: أولاً: أن الأيديولوجيات قد عملت على خلق صورة العالم من خلال وجهة نظر الطبقة الحاكمة. أما الثانى: فهو أن هذه الصورة ـ أى صورة العالم ـ كانت بالضرورة صورة مشوهة، لأن مصالح الطبقة الحاكمة بالتحديد مصالح جزئية، لأنها لاتمثل مصالح الإنسانية على وجه العموم. على أية حال من خلال ماتعرضت له مسألة الأيديولوجيا حديثًا من انتقادات وما صاحب الفكر المرتبط بها من تطور، فالتعامل مع هذا المصطلح فى ضوء الطبقة الحاكمة الممثلة لمصالحها الجزئية كأمر طبيعى من ناحية، وكمسألة تتصف بالعمومية من ناحية أخرى.

هنا أود أن اعرض لما أكده «إيجلتون» من أن مفهوم الأيديولوجيه هو ،فى الأصل، كان يعنى الدراسة العلمية للأفكار الإنسانية. غير أنه قد طرأ تحول مصطلح أيديولوجى بحيث أصبح يعنى أنساق الأفكار نفسها. من هنا نجده قد برز على أساس أنه يعنى بتحليل الأفكار وليس ذلك المدافع عنها والمؤيد لها فنجد أن القائم بدراسة الأيديولوجيا هو أصلاً فيلسوف هدفه السعى إلى الكشف المادى عن فكرنا، وهو يعتقد جازماً أن الأفكار أشياء مبهمة مستقلة عن الظروف الخارجية. كما أننا نجده يؤكد أن مفهوم الأيديولوجيا فى الوقت المعاصر يتعارض تماماً مع العلم.

استعمالات مفهوم الأيديولوجيا:

هناك العديد من الاستعمالات لهذا المفهوم فى الكتابات المعاصرة، فيستعمل هذا المفهوم أولاً: فى ميدان المناظرة السياسية. ومن الطبيعى أن نحدد هوية هذا الاستعمال هل هى سلبية أو إيجابية وذلك حسب معتقد وهوية المستعمل للمفهوم. فيرى المتكلم أن أيديولوجية تعبر عن الإيمان والتضحية والوفاء، فى حين نجده يرى فى أيديولوجية الآخرين أو الخصوم قناعاً يتسترون خلفه بنواياهم السيئة. على أن المتناول للأيديولوجية فى الحقل السياسى لايجب أن يحكم عليها من وجهة نظر الحق والباطل، وإنما عليه أن يتناولها من خلال النظر إلى فعاليتها فى استمالة الناس وتحقيقها لأهدافها.

أما مجال الاستعمال الثانى: فهو المجتمع حيث يتفق أعضاؤه على الولاء لقيم مشتركة ويستعملون منطقًا واحدًا. فالأيديولوجية تحديد أفكار وأعمال الأفراد والجماعات بكيفية خفية. وعلى الباحث لكى يحدد مصالحها أن يقوم بتحليل وتأويل أعمال أولئك المعاصرين.

المجال الثالث: هو مجال الكائن، أى الإنسان المتعامل مع محيطه الطبيعى، ففى الاستعمال الماركسى نجد أنها تحدد الواقع والكائن. فنظرية التاريخ فى الفكر الماركسى لاتنفصل عن نظرية المعرفة والكائن.

الاستعمال الرابع: خليط من الاستعمالات السابقة، فعندما نحاول أن ندرس تأثير أى أيديولوجية على الفكر عمومًا، فإن أول ما نقوم به هو البحث فى الحدود الموضوعية التى ترسم معالم ذلك الفكر.. وهذه الحدود هى حدود الانتماء إلى الأيديولوجية السياسية وحدود الدور التاريخى الذى يمر به المجتمع ككل وحدود الإنسان فى محيطه الطبيعى[1].

من هنا نستطيع القول: إن مفهوم الأيديولوجيا فى الغالب يحمل طابع الازدواج، فهو وصفى ونقدى ويتطلب دائماً مستويين، المستوى الذى نظن فيه أنها حقيقة

1- عبد الله العروى، مفهوم الأيديولوجيا، بيروت، المركز، 1993، ص 10.

مطابقة للواقع، والمستوى الذى نحكم فيه على أنها لاتعكس الواقع على وجهه الصحيح.

على أن الأيديولوجيا تنقسم إلى قسمين: القسم الأول: وهو الأيديولوجيا الجزئية الذى يقتصر على الجوانب السيكولوجية الخالصة فى حين نجد أنها ترتكز على تصورات ومواقف هى مبعث الشكوك من ناحية الخصوم. ويبدو أن أغلب الأيديولوجيات فى صراع نظرًا لما قد تبرزه الأفكار من تعارض، إذ إنها جميعًا تتصل بأجزاء محدودة ومتعارضة من الواقع الفكرى، فالكلمة تستخدم للإشارة إلى قطاع خاص من الفكر وليس الفكر كله، أى بمعنى أن الأيديولوجية تكون جزئية حين اقتصارها على مجموع الأفكار والاتجاهات الخاصة بجزء من الواقع الاجتماعى الكلى.

أما فيما يخص القسم الثانى من الأيديولوجيات: فهو يتصل بالجوانب الكلية التى هى من السعة بحيث تشمل مجموع التصورات والتيارات السائدة فى أى عصر من العصور التاريخية. فإذا كان المفهوم الجزئى للأيديولوجيا يستند إلى أصول سيكولوجية نفسية ويعتمد على مصادر نفعية، فإن الأيديولوجيا الكلية إنما تقوم على أسس منطقية وعقلية، مستندة على مايميز اتجاهات التفكير الكلى السائد فى روح العصر.

ومع البدايات الأولى لتيار النزعة النفسية صدر المفهوم الجزئى للأيديولوجيا حين ارتبطت تباشير الأيديولوجيات من البداية عند «نيقولا ميكافيللى» و«ديفيد هيوم»، مختلطة فى ذلك بالاتجاهات النفعية فى علم النفس، الأمر الذى فرض عليهما أن يطبقا مبادئ السيكولوجيا النفعية فى ميادين السياسة والاقتصاد، ومن هنا اتصلت الأيديولوجيا الجزئية اتصالا وثيقاً بسيكولوجية المنفعة.

المفهوم الماركسى للأيديولوجيا:

تولى الماركسية عناية خاصة لمعالجة موضوع الأيديولوجيا السياسية، والسبب فى ذلك يرجع إلى ماقدمه «ماركس» من تحليل للأيديولوجيا حينما عالج بناء المجتمع، وعدّها (أى الأيديولوجيا) الظاهرة المعبرة عن البناء الفوقى. إن المجتمع كما تصوره «ماركس» يعدّ شيئاً أكبر من الدولة، أى أنه حقيقة تاريخية بأكملها. الأمر الذى

جعل «ماركس» وأتباعه يستخدمون الجدل فى تحليلهم للمجتمع الأوربى المعاصر، ففى هذا المجتمع يتمثل تنظيم الإنتاج الاجتماعى، الذى ترتب على الثورة الصناعية، فى وجود طبقتين: طبقة مالكة لوسائل الإنتاج (البرجوازية)، وطبقة العمال (البروليتاريا). والصراع أمر لامفر منه بين هاتين الطبقتين، والذى سينتج عنه دمار النظام القائم. والنظام الاشتراكى، والرأى مازال رأيهم، هو وريث النظام الرأسمالى.. فالنظام الاشتراكى يتميز بالملكية الجماعية لوسائل الإنتاج، كما أنه مجتمع يتخلص نهائيًا من الطبقات. بدأ «ماركس» تحليل العناصر المكوّنة للمجتمع من مفهوم الطبقة البشرية أى تصوره للإنسان، باعتباره - أى الإنسان - نقطة الانطلاق فنجده يؤثر النظر إلى الإنسان فى ضوء مضمونه الثقافى، وهو مايؤكده علم الاجتماع الحديث. إن «ماركس» و«إنجلز» يتصوران الإنسان على أنه حيوان واعٍ. والمقصود بالوعى هنا هو وعى الإنسان بنفسه وبيئته، والعنصر الأساسى فى هذا الوعى هو وعى الإنسان بأن البيئة تقف فى عداء معه، وينتج عن ذلك كونها حجر عثرة فى سبيل بقائه. هذا هو الذى يؤدى إلى الفرضية، ويتبلور كل من الوعى والفرض فى العمل الذى يهدف بدوره إلى استخلاص وسائل حفظ حياة الفرد والنوع من البيئة.. صراع الإنسان مع بيئته صراع فى سبيل السيطرة على الطبيعة. وهذا ماتطلق عليه الماركسية الإنتاج، غير أن هذا الإنتاج لايتم إلا داخل صورة معينة من صور المجتمع، فالإنتاج نشاط اجتماعى دائماً. وهناك العديد من الصور المختلفة للمجتمع ينشغل خلالها الأفراد بإنتاج متطلبات حياتهم. على هذا المنوال درس «ماركس» و«إنجلز» هذه الصور الميكانيكية التى ظهرت أثناء محاولة الإنسان للسيطرة على الطبيعة، وانتهيا فى ذلك إلى أن الناس أثناء عملية الإنتاج الاجتماعى يدخلون فى علاقات محدودة تتطابق مع قوى الإنتاج المادى بحيث تكوّن فى مجموعها البناء الاقتصادى.

كشف «ماركس» و«إنجلز» عن مضمون كلمة أيديولوجيا، من زواية تحديد الصلة الجوهرية التى تربط مناشط الإنسان بمعتقداته واتجاهاته وتؤكد على أفكاره وتصوراته العامة. علماً بأن الاستعمالات الشائعة للأيديولوجيا هى أنها ذلك الإطار الفكرى المنسق الذى يدور حول حياة الإنسان ومجتمعه وثقافته، كما أنها تطلق لتعنى مجموع

المعتقدات والنظريات التى تحدد لنا مضامين الفكر البرجوازى، وتستند إلى التركيز على أنماط وأساليب السلوك السائدة فى حياة الطبقة البرجوازية[1].

كما نجدهم يؤكدون على ربط الأيديولوجية بالوعى الزائف، فالأيديولوجيات فى رأيهما تمثل صوراً من الوعى الزائف، وهى أفكار مضللة وأوهام ليس لها وجود حقيقى، كما أنها تقف فى مواجهة النظريات العلمية.

إن الماركسية تفسر الأيديولوجيا السياسية تفسيراً سلبيّا، وهو التفسير الذى ظل محتفظاً بدلالته فى ميدان الاجتماع والسياسة، إذ إن التفكير المنوط بأيديولوجية ماهو إلا ذلك التفكير الذى يوصف بانعدام الصلة الوثيقة بينه وبين الواقع، لأن يصوغ نظاماً للمجتمع صياغة عقلية موضوعية معتمداً فى ذلك على الأفكار المسبقة، ولا يلبث أن يعدّ هذا النظام ممكنًا من الناحية الواقعية.

إن الأيديولوجيا الماركسية تزود القارئ بمادة خصبة للتأويلات المختلفة والمتعاقبة ولكنها لم تصل - وعلى الأرجح أنها لن تصل كذلك - إلى صورة تقريرية ترضى الجميع، لأنه فى تحقيق ذلك يجعل من الماركسية معرفة مطلقة لاسبيل إلى تعليلها من الخارج. وعلماء الاجتماع الذى يستخدمون مفهوم الأيديولوجيا فى دراساتهم يرفضون الارتباط بنظرية فلسفية غير قادرة على تقديم إجابات واضحة وقطعية.

الاتجاه المحافظ للأيديولوجيا:

فى البداية أود أن أعرض للتصورات المختلفة لهذا الاتجاه، والمتمثلة فى:

أولاً: هناك النظرية الأرستقراطية التى تعرّفها النزعة المحافظة بأنها أيديولوجية حركة تاريخية، تتمثل فى ردة فعل واستجابة الطبقات الأرستقراطية للثورة الفرنسية، ثم نشأة البرجوازية فى نهاية القرن التاسع عشر. فالنزعة المحافظة الحديثة كما يحددها «مانهايم» هى نتيجة مترتبة على موقف تاريخى اجتماعى واحد، والليبرالية هى أيديولوجية البرجوازية، والاشتراكية هى أيديولوجية البروليتاريا. أما النزعة المحافظة فهى أيديولوجية الأرستقراطية.

1- قبارى محمد إسماعيل، علم الاجتماع السياسى، مرجع سابق ذكره، ص 265.

ثانيًا: هذا الاتجاه ينظر للنزعة المحافظة على أنها ليست بالضرورة مرتبطة بمصالح أية جماعة خاصة، ولم يكن ظهورها معتمدًا على صورة تاريخية خاصة، فالنزعة المحافظة نسق مستقل من الأفكار يتسم بالصدق يمكن تناوله فى ظل قيم سامية، مثل: العدالة والنظام والتوازن. أما ما يخص اعتقاد الأفراد فى هذه القيم فإنه يعتمد بالدرجة الأولى على قدراتهم الشخصية التى تمكنهم من رؤية الجوانب الإيجابية لهذه المفاهيم وليس على انتماءاتهم فالمسألة إرادة وذكاء كما صورها «راسل كيرك».

ثالثًا: هذا الاتجاه ينظر إلى النزعة المحافظة باعتبارها تلك الأيديولوجية التى نشأت كاستجابة لموقف تاريخى معين ضد اتجاه أو مقابلة كانت موجهة نحو النظم القائمة، والذى بدوره أدى بأركان النظام إلى استخدام النسق من الأفكار المستخدمة فى تبرير أى نظام مجتمعى قائم ضد أى تهديد لوجوده.

إن المتتبع لخصائص الفكر المحافظ، على أية حال، يخرج بنتيجة، وهى أنها تخدم غرضًا واحدًا هو تبرير النظام القائم على أساس التاريخ والدين والإنسان والطبيعة، ولقد كانت الأيديولوجية المحافظة هى النتاج الحقيقى للصراع الأيديولوجى والاجتماعى. وظهرت إلى الوجود حيث رفض أولئك الذين كانوا يقاومون النظم القائمة، والذى بدوره خلق فراغًا وهوة بين الذين يتمسكون بالقيم السائدة والأيديولوجيا المعبرة عنها، والذين يرفضون الحفاظ على هذه الأوضاع.

إن هناك العديد من المحاولات الحديثة لتفسير الأيديولوجيا السياسية، والتى جاءت معبرة عن الطابع الإمبيريقى الذى يتجه نحوه علم الاجتماع السياسى وعلم السياسة المعاصر بخطى جادة وسريعة، إضافة إلى إدخال المتغيرات النفسية والاجتماعية فى التحليل السياسى. هذا الاتجاه الحديث يعتمد فى تناوله لتطور الأيديولوجيا واستمرارها على ذلك التصور الخاص بنموذج يعبر عن افتراض مؤقت حول الواقع الاجتماعى. وبناء على ذلك لابد من وجود مستوى من الاستقرار تمتاز فيه الأيديولوجيا ومكوناتها بالتجانس والاعتماد المتبادل، إلى جانب وحدات التنظيم الاجتماعى المتحقق بينها نوع من الانسجام. هذه الأوضاع بصفة عامة تستند على القوى الفكرية السائدة والقيم الدينية والأفكار السياسية، وهذا بدوره ينتج مجتمعًا متوازناً.

إن المجتمع المتوازن هذا تسود فيه وتصبح القوى المؤدية إلى الاتساق الفكرى والمعنوى على درجة عالية من القوة، إلى جانب أن عمليات التنشئة الاجتماعية تسهم إلى حد كبير فى تشكيل المرجعية الخاصة بالأبناء واتجاهاتهم وأنماط سلوكهم، وتغدو الجماعة الأولية مسيطرة على مالديه من قيم وأنماط وعمليات معرفية. وفيما يخص اندماج الأفراد فى جماعات ثانوية فإن لاينتج عنه فى المجتمع المتوازن أى نوع من أنواع الخلل، بل يسهم فى زيادة إدراك الفرد ودعمه. من هنا نجد مدركات الفرد الواقعية ونسق القيم الذى يؤمن به فى حالة تجانس يدعمها نظام سياسى معين وقيم أخلاقية متعارف عليها، وهذه الظروف مجتمعة تعمل على تشجيع الاتجاهات القوية نحو تراتب المنظور السياسى والقيم والاتجاهات المتبادلة بين الأفراد.

إن التصور الخاص بالاستقرار الأيديولوجى ليس بالمنسجم كليّا مع الواقع، فالمتتبع للأيديولوجيات يجدها تشهد عمليات نمو وتحول واختفاء وإعادة ظهور، وذلك وفقاً للمواقف الاجتماعية المختلفة، لأن المجتمعات على اختلاف أنواعها لاتستطيع أن تقاوم الأزمات التى قد تعصف بها من الداخل أو الخارج، وهذه الأزمات تتخذ صورًا مختلفة، مثل: التغيرات البعيدة المدى التى يشهدها الأساس الاجتماعى والاقتصادى، وتلك التحولات التى تشمل وتطرأ على علاقات المجتمع بالمجتمعات الأخرى، أو التغيرات التى قد تلحق الآراء والاتجاهات نتيجة لظهور مطالب جديدة، إلى جانب الانهيار التام الذى قد يتعرض له المجتمع نتيجة الكوارث الطبيعية والحروب.

فى نفس الوقت نجد من يقول: إن هناك أيديولوجية مسيطرة باستطاعتها أن تستوعب التغيرات التى تطرأ على الاتجاهات والآراء، وتعدّها عابرة لاتحدث أى تغيير أو تعديل فى الأيديولوجية المسيطرة. ولكن فى المقابل ربما هذه الأيديولوجية المسيطرة نفسها تكون فى حالة اضطراب داخلى نتيجة لقوى اجتماعية أو نفسية، بحيث نجدها تستجيب مباشرة للمؤثرات الجديدة فينالها التعديل بطريقة أو بأخرى.

على العموم كل هذا مجرد افتراضات لايتم حسمها إلا عن طريق البحث الإمبيريقى الذى أصبح الآن لاغنى عنه فى ميدان دراسة السلوك والاتجاهات

السياسية، وهذا البحث الإمبيريقى فى ميدان الأيديولوجيا يحتاج أولاً إلى اتخاذ مجموعة من التدابير الضرورية لتطوير نظرية الأيديولوجيا المستخدمة فى التحليل السياسى.

إن «جيمس بيرنز» يحدد هذه التدابير والخطوات على النحو التالى:

أولاً: صياغة تعريف للأيديولوجيا بحيث يكون صالحاً فى الدراسات الميدانية، ولابد لهذا التعريف أن يكشف عن القوى المؤثرة فى الأيديولوجيا والعلاقة بينهما.

ثانيًا: لابد من تطبيق الأساليب والتقنيات فى دراستنا للاتجاهات السياسية من حيث النموذج والبناء.

ثالثًا: الاعتماد على وجود فهم واضح لدور القيادة فى عمليات استقرار وتغيير الأيديولوجيا.

رابعًا: لإيجاد نظرية متكاملة للأيديولوجيا يجب أن تحتوى على كافة القوى السياسية المؤثرة فى الأيديولوجيا، وذلك مثل النظريات الكلاسيكية التى صاغها كل من «ماركس، باريتو، مانهايم، لوكاتش والتوسيدزوميروال». هذه النظرية تعدّ مفيدة كأداة ملائمة لدراسة طائفة كبيرة من الظواهر الهامة كالبناء المعرفى والنظم السياسية والبناءات الخاصة بالقيادة التى تمارس تأثيراً فعالاً على الاتجاهات وأنماط السلوك.

الأيديولوجيا: الفعالية والتأثير

هناك العديد من الاختلافات فى الآراء حول موضوع فعالية تأثير الأيديولوجيا خصوصًا بين متبعيها. وهذا يرجع بالدرجة الأولى إلى اختلاف مفهوم الأيديولوجيا مما أدى إلى ظهور نظريات متعددة. فعند تناولها للفكر عند «هيجل» نجده يعدّه بمثابة الحقيقة الموضوعية والوجود الفعلى الأصلى. فى المقابل نجد أن «ماركس» لايرى فى الفكرة هذه سوى صورة عقلية محضة. فالأفكار عند «ماركس» لاتنبعث إلا من خلال الواقع الاجتماعى المادى، وهذه الأفكار هى التى تعكس الواقع ووجوده فى وعى البشر.. فالأفكار على أية حال لاتستطيع أن تجاوز حدود الوضع القائم.

على أن أى أيديولوجية تمتاز بالطابع العلمى فهى بالضرورة تنال اقتناع وقبول الناس، نظراً لأن العلم عند الناس يمثل ضمانة لتحقيق فكرة التقدم. إن الأيديولوجيات تحتاج إلى إقناع الناس بها حتى يكون مفعولها نافذاً. وهؤلاء

محتاجون إلى المؤسسات ووسائل القوة التى تكفل لهم إيجاد مساحة لأيديولوجيتهم فى مجالات الحياة المختلفة. وهذا حسب اعتقادى مايمثل هدف وغاية كل أيديولوجية، والأيديولوجيا السياسية بالتحديد.

فالأيديولوجية التى تعتنقها الفئة المسيطرة فى المجتمع تسعى دائماً إلى تبرير الوضع القائم ومحاولة المحافظة عليه، فى أية مواجهة مع الأيديولوجيات الأخرى، أما تلك الأيديولوجية التى تسعى جاهدة لتغيير العلاقات المجتمعية والسياسية القائمة، فهى ترى أن هدفها هو إعادة توزيع لعلاقات السلطة والقوى السياسية. وإزاء هذين الاتجاهين ترى الأيديولوجية التقدمية أن هدفها هو إقامة نظام كلى جديد يشمل علم الإنسان المجتمعى، فهى تسعى لقلب العلاقات الاجتماعية القائمة. وفى المقابل نجد أن أية أيديولوجية لاتستطيع أن تصل إلى غاياتها مالم تتوافر لها الإرادات اللازمة لذلك، وهى الاستيلاء على السلطة وامتلاك مقاليد الأمور. فالأيديولوجيا كما يصورها بعض المفكرين تشتمل على عنصرين أساسيين، عنصر نظرى وآخر عملى.. فالأيديولوجيا من الناحية النظرية تؤلف كلاً متساندا ونظاماً من الأفكار والتبريرات التى تتناول الإنسان ومكانته فى المجتمع.

ومن الناحية والعملية تحمل الأيديولوجيا أتباعها على نهج سلوك يعملون من خلاله على الوصول بتلك التبريرات إلى مجال التحقيق، فالدافع الذى يحرك الأفعال لتحقيق الهدف هو مايميز الأيديولوجيا السياسية عن النظرية الفلسفية، وموقفها التأملى المجرد من العالم والمجتمع.

وعندما نتناول تأثير وفعالية الأيديولوجيا نجد أن كل تفكيرنا قد انصب مباشرة على الأيديولوجيا السياسية. حيث تتضح الفاعلية فى أجلى مظاهرها، ويغدو من اليسير معرفة الأدوات والتقنيات المستخدمة لإثبات تأثير أيديولوجيا معينة، كما أنه يتاح لنا معرفة طرق انتشارها وماهى متطلبات هذا الانتشار وذلك عن طريق استعارة الأدوات والمنظورات المستخدمة فى علم الاجتماع والتاريخ.

فالأيديولوجيات يجب أن تتوافر لها بيئة مناسبة مستعدة لقبولها واستيعابها، أى أنها تحتاج إلى بشر كى تخاطبهم وأن يكون هؤلاء البشر مستجيبين وقابلين لهذه المخاطبة، هؤلاء يرون فى ماترسمه من تصورات أملاً فى المستقبل وتحقيقاً لرغباتهم وآمالهم الذاتية.. عندها فقط تكون الأيديولوجيا قد بلغت هدفها.

من خلال استعراض التاريخ يتبين لنا أن قوى الأفكار قد اهتمت فى كل العصور على نحو غير قابل للشك، بصنع مايحدث فى المجتمع والسياسة، كما نتبين أن الأيديولوجيا تخلق لنفسها دائرة أعمق وأوسع مما تخلقه النظريات الفلسفية القائمة على التأمل.

نهاية الأيديولوجيا:

إن قضية طرح الأيديولوجيات جانباً أصبحت من القضايا التى تتمتع بانتشار واسع، وهناك العديد من الدراسات التى تحاول فى مجملها التدليل على نهاية الأيديولوجيا. فنجد «ليبش وريزمان وبيب ورسميون ارون وميلز» من مؤيدى فكرة أو جدل نهاية الأيديولوجيا، وذلك للاعتبارات التالية: أولاً: أن السياسة الغربية لم تعد لها اليد الطولى على الأيديولوجيا الراهنة، بل هناك تغيرات أخرى دعمت الاتجاه السياسى. ثانيًا: أن التقييم التقليدى لليسار واليمين قد تغير ولم يعد ذا أهمية. ثالثًا: أن الظواهر السياسية السائدة فى العالم اليوم هى تقليد غربى. وأخيرًا هناك سيادة فى عالم اليوم لتعددية الثقافة والسياسة. لهذه الاسباب مجتمعة يؤيد بعض الباحثين الدعاوى بنهاية الأيديولوجيا[1].

إلا أن وجهة النظر هذه وحسب اعتقادى تنطوى على عدم إدراك لأهمية الأيديولوجيا بالنسبة للحياة والعملية، فالأيديولوجيا تحتوى على التقييم السياسى والأخلاقى، أى تلك القوى الدافعة التى تصبح الحياة بدونها شبه مستحيلة. فالأيديولوجيا هى التى تزود الإنسان بالتوجيه الشامل لحياته وتوضح وتضع أمامه الأهداف والمهام، كما أنها تمده بالدافع الذى يحقق الهدف وينجز المهمة.

* * *

1- عاطف أحمد فؤاد، علم الاجتماع السياسى، مرجع سابق، ص219.